دور الزوايا في مقاومة الاحتلال الفرنسي

أ. سعاد الحداد

باحثة بالمركز

مقدمة

اعتمد المستعمر الفرنسي عند احتلاله الجزائر وسائل عدّة لإخضاع الشعب الجزائري، من بينها التقتيل والتهجير، وسرعان ما تفطن إلى المقومات الأساسية لهذا الشعب، والمتمثلة أساسا في الدين الإسلامي واللغة العربية اللذين يميزان الشخصية الجزائرية، فأراد تدميرها حتى تسهل السيطرة التامة عليه.

لكن هيهات له أن يحقق ذلك، إذ أن الشعب الجزائري كان متشبعا بالقيم الدينية والاخلاقية البحتة المستمدة من الشريعة الإسلامية، التي غرستها فيه المؤسسات التعليمية والدينية التي كانت متواجدة بشكل كبير عبر كامل أرجاء الوطن والمتمثلة في المساجد والزوايا.

وتعد الزاوية أهم محضن تعليمي في الجزائر وفي المغرب العربي عموما، نظرا لشهرتها ودورها الفعال على مستويات عدة.

وعلى الرغم من الشهرة التي اتسمت بها الزوايا والتي تعدت حدود نطاقها الجغرافي، إلا أنها لم تحظ بالنصيب الوافر من الاهتمام، من أجل إماطة اللثام عنها وتسليط الضوء على الجانب المظلم الذي يشوبها والذي ربما قد يقلل من شأنها في الدور الذي لعبته قديما والذي يجب أن تلعبه حديثا من أجل ترسيخ الثوابت الوطنية والدينية في المجتمع.

تعريف الزاوية :

الزاوية "في الأصل هي ركن البناء، وكانت تطلق بادئ الأمر على صومعة الراهب المسيحي، ثم أطلقت على المسجد الصغير أو المصلى، ولا يزال للكلمة هذا المعنى عند المسلمين في الشرق، ذلك أنهم يفرقون بينها وبين المسجد الذي يفوقها شأنا، وهو يعرف أيضا بالجامع، على أن مصطلح "زاوية" ظل محتفظا به في شمال إفريقيا بمعنى أكثر شمولا من ذلك، إذ هو يطلق على بناء أو طائفة من الأبنية ذات طابع ديني، وهي تشبه الدير والمدرسة.... "[1]

والأصل في الزوايا هي الرباطات وهي الثغور التي يرابط فيها المجاهدون لحراسة حدود الدولة الإسلامية والجهاد في سبيل الله، وقد نشأت في بلاد المغرب الإسلامي منذ العهود الأولى للإسلام، وأهم أعمال "الرباطات" في أيام السلم هو التربية والتعليم إلى جانب القيام ببعض أعمال البر والإحسان الأخرى [2].

وغالبا ما نجد في الزوايا غرفة للصلاة بها محراب، ضريح لأحد المرابطين أو لولي من الأشراف تعلوه قبة، غرفة لتلاوة القرآن، مكتب أو مدرسة لتحفيظ القرآن ثم غرف لضيوف الزاوية وللحجاج والمسافرين والطلبة [3].

كما عرّف الدكتور رابح تركي الزوايا على أنها مراكز مشائخ الطرق الصوفية في الجزائر والمغرب الإسلامي بصفة عامة، وهي اسم جامع لمكان بقطع النظر عمن يجمعه هذا المكان من

المنزوين إليه، هذا من حيث الوضع اللغوي أما من حيث الاصطلاح فإن الزوايا على ثلاثة انواع :

1 - فقد تكون الزاوية محلا تلقى فيه دروس للطلبة (في مختلف مراحل التعليم) وفيها مساكن خاصة لهم، فهي من هذه الناحية أشبه بالمدارس الداخلية في وقتنا الحاضر، إذ تتوفر فيها جميع الظروف المادية والعلمية لطلبتها كي يتفرغوا لدراستهم العلمية فقط.

2 - وقد تكون الزاوية ملجأ للطلبة أو العلماء المغتربين يجدون فيها المأوى مجانا وما يحتاجون إليه من الماء والطعام والوضوء وكذلك ملجأ للقفراء وأبناء السبيل.

3 - وقد تكون الزاوية في بعض من الأحيان ضريح عالم أو رجل صالح.

وفي سائر حالاتها يوجد بها مسجد للصلاة والوعظ والإرشاد والأذكار الصوفية [4].

ويرى الأستاذ محمد حسن اليجري (وهو باحث في شؤون الزوايا بمنطقة القبائل) بأن كلمة الزاوية لها معنيان :

الأول : يراد به رباطات وكتاتيب وجوامع ومساجد ومدارس ومعاهد ذات نظام داخلي أسست لتحفيظ القرآن الكريم أولا ثم لدراسة العلوم المختلفة ثانيا. ومستوى التعليم وبرنامجه يختلفان من معهد أو جامع لآخر، ويكونان في الغالب

تابعين لرغبة المؤسس الأول أو خاضعين لكفاءة الأساتذة المدرسين أو لرغبة واستعدادات الطلبة الدارسين... وبناء على هذا المفهوم يطلق عليها إسم "الجامع" حينا و"المعمرة" حينا آخر ويعنون به المكان الذي يجتمع فيه عشرات من طلبة القرآن والعلم.

الثاني : يراد بكلمة "الزاوية" المزار أو الرباط الذي هو عبارة عن نقطة أو مركز استراتيجي لمراقبة تحركات العدو أثناء الحروب، ابتداءً من القرن 8 هـ إلى القرن 12 هـ، ثم تحولت تلك المراكز في أواخر القرن 13 والقرن 14 إلى أماكن للعبادة، أو مقابر دُفن فيها بعض العلماء أو الفقهاء أو بعض المشايخ المتصوفين، وأخذ الناس يطلقون على تلك الأماكن تسميات عديدة من بينها مقام، قرابة، قبة، مزار، خلوة.. [5].

في الفترة الأخيرة، أطلق العديد من طلبة الزوايا المعاصرين لفظ المعهد على الزاوية، للتفريق بين زوايا المرابطين والزوايا العلمية. وربما قد يرجع هذا التفريق إلى انحراف عدد كبير من الزوايا عن أداء مهامها خصوصا في فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر، حيث تحولت بعض هذه الزوايا من الاعتناء بوظيفة التعليم ونشر الوعي إلى موالاة الاحتلال وتنويم الشعب بمظاهر البدع والخرافات. [6]

وأيّا كانت التسمية أو التعريف فإن عمل الزوايا في القديم كان يشبه إلى حد كبير عمل الجمعيات الخيرية في عصرنا الحاضر، وهو التربية والتعليم للشباب والأطفال الصغار والوعظ والإرشاد للكبار، والعمل على نشر الروح الدينية السليمة في النفوس، وكفالة اليتامى والمساكين واستقبال المسافرين وأبناء السبيل وتزويدهم بالغذاء والمأوى إلى أن يستأنفوا سفرهم.

الزوايا في الجزائر قبل الاحتلال :

كانت الجزائر قبل الاحتلال تعج بالزوايا التي انتشرت على كامل التراب الجزائري، ففي المدن والأرياف، وفي الجبال والصحارى عاش معظم المتصوفة يبثون عقائدهم ويلقنون أتباعهم الأذكار والأوراد ومبادئ الدين، مبتعدين عن صخب الحياة الدنيا، مؤثرين العزلة والعبادة، فإذا اشتهر أحدهم بين الناس، أُسّس له مركز يستقبل فيه الزوار والغرباء والأتباع ويعلم فيه الطلبة، ويتبرع الناس لهذا المركز فيكبر ويثرى ويتضاعف قُصاده ومريدوه، ويصبح اسم المتصوف (المرابط) عَلَما على المكان يسمى باسمه... فإذا مات يدفن في الزاوية أو في الرباط، ويصير الضريح علامة على الزاوية، ويرث الأبناء والأحفاد مكانتهو صيته وتزداد قداسة الزاوية بين أهل الناحية وتنتشر سمعتها ونفوذها إلى نواح أخرى بعيدة (7)، ولقد كان انتشار الزوايا واسعا لدرجة أن كل مدينة كبيرة كانت أو صغيرة لا تخلو من زواية.

فمدينة الجزائر مثلا كان بها العديد من الزوايا، فبالإضافة إلى زاوية وضريح عبد الرحمان الثعالبي هنالك زاوية الولي داده، وزاوية عبد القادر الجيلاني، وزاوية سيدي محمد الشريف وزاوية سيدي أحمد بن عبد الله الجزائري صاحب المنظومة الجزائرية، وسيدي الجودي وسيدي جمعة وسيدي الكتاني وسيدي السعدي وسيدي الفاسي.... إلخ. [8]

كما وجد في مدينة قسنطينة ونواحيها عدد كبير من الزوايا، كزوايا سيدي الكتاني وسيدي المناطقي وسيدي عبد المؤمن وسيدي مسيد وسيدي مخلوف وسيدي ميمون وسيدي عفان وسيدي راشد وسيدي التلمساني، كما كانت للعائلات الكبيرة بالمدينة زواياها الخاصة مثل زاوية أولاد الفكون وزاوية ابن نعمون وزاوية أولاد جلول، وكانت هناك زوايا خاصة بالأتراك والكراغلة. [9]

وكان لمدينة تلمسان زواياها أيضا نذكر منها زاوية سيدي الذيب وزاوية سيدي بومدين وزاوية محمد السنوسي وزاوية أحمد الغماري وضريح سيدي الحلوي الأندلسي وزاوية عين الحوت، وزاوية مولاي الطيب الوزاني.... إلخ. [10]

وتعد منطقة القبائل من أغنى مناطق الجزائر بالزوايا وقد تصل إلى خمسين زاوية، ولعل أهمها في ميدان التعليم ونشر الوعي الديني بين السكان زاوية تيزي راشد الذائعة الصيت (التي تسمى

أيضا زاوية بن عراب)، وزاوية الشيخ محمد التواتي ببجاية، وزاوية الأزهري بآيت اسماعيل وزاوية بن علي الشريف بآقبو وكذلك سيدي منصور بآيت جناد، وزاوية عبد الرحمان اليلولي.... إلخ. [11]

وأثبتت الإحصاءات على أن عدد الزاويا والأضرحة كان يفوق عدد المساجد والمدارس، فقد كان بتلمسان ونواحيها أكثر من ثلاثين زاوية في أواخر العهد العثماني. وفي عهد صالح باي كان في قسنطينة 13 زاوية وهو عدد لا يشمل بالطبع الزوايا المحيطة بها، كما ضمت كل من عنابة وبلاد القبائل أعدادا لا بأس بها من الزوايا. أما عن مدينة الجزائر فقد كانت تضم 32 قبة أو ضريحا و12 زاوية، وذكر مصدر آخر أنه كان بها 19 زاوية أو رباطا. [12]

يختلف بناء الزاوية عن بناء المسجد والمدرسة، فالزوايا غالبا ما جمعت بين هندسة المسجد والمنزل، وهي في الغالب قصيرة الحيطان، منخفضة القباب والدعامات، قليلة النوافذ. وإذا كان للزواية مسجد فهو في الغالب بدون مئذنة. فالزاوية من الناحية الهندسية بسيطة جدا، شكلها يوحي بالعزلة والتقشف والهدوء، إلا أن الزوايا المعدة أصلا لسكنى الطلبة ونحوهم كانت واسعة وصحية [13].

اعتمدت الزاوية من ناحية التموين على موارد أساسية يمكن تلخيصها في نقطتين هامتين :

1 – التبرعات التي يقدمها المحسنون من الأغنياء في شكل نقود وبضائع ومواد غذائية (حبوب، زيتون، مفروشات.... إلخ).

2 – الأوقاف المتمثلة عموما في الأراضي الزراعية وحقول الأشجار المثمرة والغلال والحيوانات والمحلات التجارية والحمامات المعدنية في الأرياف والتي تدر عليها الأموال اللازمة لاحتياجاتها المختلفة، كالتغذية والإنارة والتنظيف والتبييض والتأثيث والصيانة والإنفاق على الطلبة وتغطية أجور المشايخ العاملين بها.

وللزوايا مصدر اقتصادي آخر يتمثل في أموال الزيارات والوعدات (جمع وعدة) التي يقدمها الزوار على شكل نقود وبضائع ومواد غذائية متنوعة وألبسة.

ولقد كانت بعض الزوايا غنية جدا لدرجة أنها تأوي وتطعم وتعلم أعدادا كبيرة من الزائرين والطلبة، وتغطي أجور المدرسين.

كان على رأس كل زاوية مسؤولا رئيسيا غالبا ما يكون مؤسسها أو المرابط نفسه أو ورثته، وفي غياب المؤسس أو المرابط عادة ما يتولى إدارة الزاوية أبناؤه وأحفاده على نفس النمط. وكانت بعض زوايا المدن تحت إشراف "قيمين" أو مديرين يعينهما وكلاء الأوقاف العامة أو الخاصة كسبل الخيرات وبيت المال ومكة والمدينة، وكان هؤلاء القيّمون عادة من نسل المرابط أو من الأشراف أو من أهل الصلاح والخير[14].

لقد كانت الزاوية مؤسسة كاملة فيها السكن والطعام والملجأ والتعليم والعبادة، ومنها ما كان يعتبر مدارس عليا لمواصلة التعليم الذي ابتدأ به في الكتاتيب والمدارس القرآنية، ومنها ما هو خاص بفئة اجتماعية مثل الأشراف والأندلسيين.

وضع الزوايا بعد الاحتلال :

ظلت المقاومة والحركة الوطنية للجزائر تعتمد إلى حد كبير على الوازع الديني كمحرك أساسي لإشعال فتيل الجهاد الذي استمر طيلة القرن الماضي، وكذا الأمر بالنسبة للنضال السياسي منذ الحرب العالمية الأولى، فإن العمود الفقري في كل تحرك ضد القوى الاستعمارية هو العامل الديني، وقد ازداد هذا العامل بروزا وقوة أثناء الثورة التحريرية.

هذا ولقد تفطن الشعب الجزائري للطابع الصليبي الذي تميزت به الحملة الاستعمارية، فقد قررها شارل العاشر اليسوعي المتحمس وباركها البابا وأيدتها الكنيسة، وبعد نجاح الحملة تهاطل على الجزائر المبشرون، وأخذت السلطات العسكرية تهدم المساجد وتحول بعضها إلى كنائس، وتستولي على الأوقاف الدينية [15].

كما أن القوانين الاستثنائية التي أصدرتها السلطات الاستعمارية بشأن الجزائريين كانت كلها تقوم على الروح الصليبية، ويدخل في ذلك قانون إلغاء القضاء الإسلامي، وقانون

الجنسية الصادر سنة 1865 وإهمال التعليم الإسلامي وإطلاق الحرية للمبشرين ولا سيما منظمة الآباء البيض والأخوات البيض وتسليط المستشرقين الفرنسيين للطعن في الإسلام وتراثه. كل هذا وغيره من القوانين الإستثنائية تجعل من الوجود الفرنسي ليس مجرد سلطة احتلال سياسي واستغلال اقتصادي ولكن قوة صليبية تحمل معها أضغان الماضي بكل بشاعتها [16].

لقد تفنن الفرنسيون في أساليبهم للسيطرة على الجزائر، ولم يكفهم التقتيل والتهجير والنفي والإرهاب لترويض الشعب الجزائري، ومالبثوا أن التفتوا إلى مكامن الخطر في نظرهم وجندوا لها سلاحهم الجديد، فقد لاحظوا مدى التفاف والتحام الشعب الجزائري بدينه، وبأنه مصدر الترابط، كما لاحظوا أن زعماء حركة المقاومة والجهاد كانوا ينبثقون من المعاقل الدينية المنتشرة عبر الوطن والمتمثلة على الخصوص في المساجد والزوايا، التي عملت على المحافظة على الوحدة الوطنية وعلى القيم والتعاليم الإسلامية والدعوة إلى الجهاد والاستشهاد دفاعا عن الدين والوطن. فتعرضت الزوايا كسائر البنايات الإسلامية الجزائرية إلى الهدم والإهمال والتحويل عن مهمتها، واغتصبت السلطات الفرنسية أوقافها أيضا، وبذلك حرمت الموظفين والعلماء والفقراء من حقوقهم المشروعة التي نصت عليها الأوقاف.

ولا يمكننا الحديث هنا بإسهاب عن الوضع الكارثي الذي آلت إليه الزوايا ، إلا أننا نحيل المهتم بالموضوع إلى الجزء الخامس من كتاب "تاريخ الجزائر الثقافي" لمؤلفه الدكتور أبو القاسم سعد الله الذي قدم في هذا الشأن دراسة وافية.

لقد تفطنت إذا السلطات الفرنسية إلى مدى أهمية الدور الذي تلعبه الزوايا في التأثير على عقلية أتباعها ، وتحققت من كون معظم الثورات يقودها مرابطون جمعوا لديهم السلطة الدينية والسياسية ، فتأكدت من أن وجودها سيظل مهددا ما لم تتخلص من خطر المؤسسات الدينية. عندئذ أبدت الحكومة الفرنسية اهتماما كبيرا بالطرق الصوفية ، وكلفت عددا من الأخصائيين الفرنسيين بدراسة كل ما يتعلق بالجمعيات الدينية من الناحية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية [(17)] ، بغرض معرفة كيفية القضاء على هذه الجمعيات.

واعتمادا على هذه الدراسات وجدت الحكومة الفرنسية نفسها بين أمرين، إما إعلان الحرب على جميع الزوايا والطرق الصوفية واضطهاد رؤسائها وفرض السيطرة الكاملة عليها باعتبارها المركز الذي تنطلق منه جميع الثورات، أو محاولة التقرّب منها والحصول على ثقة وطاعة شيوخها.

لجأت السلطات الفرنسية إلى الخطة الثانية وأعطت الأمر للقيام بعمليات التجسس على كل نشاطات الزوايا وعلى كل

حركات الجهاد التي يمكن أن تقوم بها طريقة من الطرق الصوفية [18]، وحتى يتسنى لها تحقيق ذلك لجأت الإدارة الاستعمارية أيضا إلى توظيف بعض الشيوخ الذين رضوا بالتعامل معها، فجعلتهم يستفيدون من الخدمات الاجتماعية، والألقاب والأوسمة الشرفية ومكنتهم من المشاركة في الحياة السياسية وأمضت معهم اتفاقات مشتركة، اعترفت لهم بموجبها بالسلطة الروحية والمعنوية وأمدّتهم بالمال والأراضي. كل ذلك مقابل الالتزام والمحافظة على النظام والأمن [19].

ولقد تمكنت فرنسا من خلال هذه الإجراءات من إضعاف العديد من الزوايا، إلا أن الأمر لم ينطل على زوايا أخرى ظلت مثالا للمقاومة والجهاد بالرغم من الضغوط التي مورست عليها وبالرغم من الخلافات التي كانت قائمة بين بعض فروعها [20]، بسبب تعامل بعض الشيوخ مع سلطات الاحتلال، أو بسبب رغبة البعض منهم في توسيع مناطق نفوذهم إلى جهات بعيدة أخرى [21].

وفي كلتا الحالتين، كانت الحكومة الفرنسية تراقب الوضع، وكثيرا ما كانت تقدم العون للفريق الذي كانت ترى أنه يخدم مصلحتها في المنطقة.

ومهما كان الأمر، فإن الخلافات التي كانت قائمة بين بعض الشيوخ لم تقلل من الدور الذي لعبته مختلف الزوايا التي أعلنت الجهاد، وأذكت شعلة المقاومة الجزائرية.

دور الزوايا في المقاومة ومواجهة الاحتلال

- الدور الديني والتعليمي :

ارتبطت الزوايا ارتباطا وثيقا بمهمة التعليم، ومع استقرار الوظيفة التعليمية للزوايا، تطور معها نظام التعليم الديني ومناهجه لدرجة أنها اعتبرت مؤسسات متخصصة في التعليم.

تمتعت الجزائر قبل الاحتلال بما تمتع به العالم العربي والإسلامي من معارف وعلوم وثقافة، وأجمعت جل المصادر الغربية على أنها بلغت درجة كبيرة من الازدهار، والدليل على ذلك كثرة المعاهد والمؤسسات الثقافية والإسلامية التي كانت منتشرة في جميع أنحاء البلاد والتي كانت تتوفر على عدد هام من رجال العلم والأدب والفقه، الذين تجاوزت شهرة بعضهم حدود الجزائر إلى غيرها من الأقطار العربية والإسلامية، وكانت الزوايا تحتل مكانة مرموقة بين هذه المؤسسات، إذ أنها كانت ملتقى لنشر تعاليم الدين الإسلامي الحنيف من جهة ومعاهد لتعليم الشباب وتنوير العامة من جهة أخرى.

فتحت الزوايا أبوابها للصغار ليتلقوا فيها دروس حول مواد دينية وغير دينية، في المدن والأرياف، وكانت تساهم في تكوين الأجيال الصاعدة وتحضر الشباب قصد إرسال أحسنهم لإتمام الدراسة في تونس أو المغرب الأقصى.

قدر عدد الكتاتيب والزوايا سنة 1871 بـ 2000 موزعة على كامل القطر الجزائري وقامت بتعليم 28000 تلميذ تقريبا [22].

أكدت معظم المصادر التاريخية على أن العديد من الزوايا كانت بمثابة مخازن ودواوين للكتب والمخطوطات في مختلف الفنون والعلوم، ونشير هنا إلى أن معظم ما بهذه المكتبات من تراث قد تسرب إلى البلدان الأوروبية وتعرض جزء هام مما تبقى إلى الضياع خلال مرحلة المقاومة.

كان الشعب الجزائري إذن متشبعا بالثقافة العربية الإسلامية، وكان الدين الإسلامي واللغة العربية نظامين اجتماعيين متكاملين بنائيا ومتساندين وظيفيا في حياة المجتمع قبل دخول الاستعمار، لهذا شهدت الفترة التي تلت مرحلة الاحتلال صراعا حادا بين الحضارتين، تميزت بعدم هضم الجزائريين الحضارة الدخيلة بسبب تكوينهم الراسخ الذي منع تأثرهم السريع بما كان يجري حولهم.

لم يتجه المستعمر عند دخوله الجزائر إلى التربية والتعليم مباشرة نظرا لانشغاله بمحاولة إخضاع البلاد ونواحيها لهم، وبالتالي فإن اهتمامه بهذا المجال كان من خلال وضع القرارات القضائية لضرب المجال التعليمي، من ذلك قرار الجنرال "دوبرمون" في 8 سبتمبر 1830 ؛ الرامي إلى وضع الاستعمار يده على الأوقاف الإسلامية، ثم صدر قرار مكمل للأول من طرف قادة الاحتلال في

07 ديسمبر 1830 ينص على حق التصرف في الأملاك الدينية بالتأجير والكراء [23].

وتجلت الروح الصليبية فيما قاله شارل العاشر في 2 مارس 1830 حين كان يتأهب لضرب الجزائر : "إن العمل الذي سأقوم به لترضية شرف فرنسا سيكون... لفائدة المسيحية" [24]، كما تجلت أيضا في مواقف عدة لمسؤولين سياسيين وعسكريين آخرين.

ونجد فرنسا قد وضعت اللغة العربية والإسلام في كفة واحدة، وحاربتها منذ دخولها الجزائر. لذلك تأثرت حركة التعليم تأثرا كبيرا بالاحتلال، حيث استشهد العديد من حملة الثقافة العربية الإسلامية، والقلة المتبقية منهم آثرت الهجرة خارج الجزائر.

أما عن الزوايا فلقد هدمت أو أهملت أو حرمت من الأوقاف التي كانت تعتمد عليها، وضيّق مجال نشاطها وأنشأت مدارس فرنسية لسحب التلاميذ منها، وحورب كبار المرابطين أو تم استدراجهم بالوظائف والزواج المختلط، وشُجعت الدروشة والدجل بدل التعليم، كما تم منع الزوايا من نشر التعليم العام وفرض عليها برنامج ضيق لا يتعدى تحفيظ القرآن الكريم دون تفسيره أو تعليم قواعد اللغة وأصول الدين [25]، كل ذلك لخدمة الأغراض التبشيرية الهادفة إلى تنصير الجزائر وإخراجها عن هويتها العربية.

وأمام هذا الوضع الخطير، حملت بعض الزوايا التي ظلت وفية لمبادئها التعليمية الدينية مهمة حماية الدين الإسلامي واللغة

العربية، وبقيت تؤدي مهمة التعليم بهدف المقاومة والمحافظة على الذات في وجه الغزو التنصيري الذي جاء في أعقاب الغزو العسكري للجزائر.

وتمثل دور الزوايا في نشر تعاليم الإسلام رغم مضايقة الاستعمار لها وفي المحافظة على الإيمان في قلوب الجزائريين طيلة عهد الاحتلال الفرنسي للجزائر، ومنها استمد الشعب الجزائري ثقافته الروحية، وإيمانه العميق بوحدة الدين ووحدة المصير، فكانت بذلك الحصن الحصين الذي اعتصم به الشعب الجزائري، وبالأخص المجتمع الريفي في وجه الاستعمار والمبشرين.

ولقد أكد هذه الحقيقة أيضا قادة الاحتلال أنفسهم حينما كشفوا مظاهر المقاومة المعنوية للشعب الجزائري وبالشكل الثقافي الذي اتخذته هذه المقاومة من خلال المؤسسات الدينية التي كانت بمثابة الحاجز المانع لكل المحاولات التي كانت ترمي إلى تغيير الشخصية وطمسها. إذ اعتبر الفرنسيون "أن المعلمين الأهالي المشبعين بمبادئهم الذين يغذيهم حقد لا هوادة فيه ضد المسيحيين ويعميهم التعصب، سيعملون جاهدين من أجل إبعاد الجيل الناشئ عنا" (26).

هذا التحليل واقعي وصحيح إلى حد بعيد، ذلك أنه لا يمكننا البتة الفصل بين الدور التعليمي – الديني عن الدور السياسي والعسكري الذي قامت به الزوايا، وهما أمران مرتبطان ببعضهما

ارتباطا وثيقا ، بالأخص حينما نعلم أن العديد من الثورات التي قامت ضد الفرنسيين كان يتزعمها مشايخ الزوايا ، وهذا ما سنراه لاحقا.

هذا ولقد بذلت الزوايا أقصى جهودها لمقاومة الجهل والأمية وعملت ضد سياسة التجهيل التي كانت الإدارة الاستعمارية تتبعها ضد الأهالي الجزائريين، علما أن خطة الاحتلال لم تقتصر على تجريد الإنسان الجزائري من أرضه وممتلكاته فقط، بل عملت على تجهيل الجزائريين عامة لطمس كل أثر لكيانهم العربي الإسلامي، وهذا ما أدى بالسلطات الفرنسية إلى الاستيلاء على المساجد وتحويلها إلى كنائس ومراقبة وحد نشاط الزوايا باعتبارها رمزا للعلم ومحورا للنشاط الاقتصادي والاجتماعي والثقافي.

الدور السياسي والعسكري للزوايا :

يتمثل دور الزاوية في محاربة الاستعمار منذ دخوله أرض الجزائر، في عدم ادخار الزعماء الروحيين جهدا لتعبئة المواطنين وتوجيههم ودفعهم إلى مقاومة الاحتلال الفرنسي، وكانت الزوايا قاعدة ينطلق منها المجاهدون الذين رغم امكاناتهم المادية المحدودة إلا أن عزيمتهم كانت قوية ومعنوياتهم مرتفعة جدا.

ونظرا لمكانة الزاوية المرموقة والاحترام الذي كان يحظى به أصحابها فإن أي نداء للجهاد كان يلقى صدى لدى السكان

لمحاربة هذا العدو الذي جاءهم باسم الكنيسة لمحاربة دينهم ولغتهم.

ولعل التركيز على الناحية الروحية كان أقوى من الناحية المادية باعتبار أن الارتباط الروحي كان أقوى من الارتباط المادي، وهكذا انتشرت الثورة ورُفع لواء الجهاد ضد الفرنسيين في المساجد والأسواق والأماكن العامة، وحصلت التعبئة العامة وتوالت الثورات المناهضة للمستعمر.

إلا أنه ما لبث أن عرفت الفترة الموالية انقساما بين الزوايا، فمنها من بقي وفيا لمبادئ الجهاد ومنها من سعى لتحقيق أغراض دنيوية أطمعته بها السلطات الفرنسية، خاصة بعد انتشار المكاتب العربية في كل مكان والتي كانت تحكم العامة بقبضة من حديد وتتجسس على كل نشاط سياسي يمكن أن يقوم به أي فرد، وعلى كل حركة جهاد يمكن أن تقوم بها طريقة من الطرق الدينية.

سعت السلطات الاستعمارية إذن إلى استمالة شيوخ الزوايا واشترت ضمائر بعضهم فعمل هؤلاء على إخضاع السكان المجاورين لزواياهم إلى جيش الاحتلال، بل أن بعضهم قد تجند فعلا للوقوف في وجه الثوار المقاومين لإجهاض حركات المقاومة في وجه الاستعمار من أجل تحقيق أهداف دنيوية رخيصة.

لكن من حسن الحظ أن زوايا أخرى قد تحولت إلى مراكز كانت في كثير من الأحيان السبب في تشجيع ودفع المواطنين إلى الارتماء في أحضان الثورات وتجنيدهم و جمع الأموال باسم الدين، وحمل السلاح دفاعا عن الأرض والشرف والإسلام. ونكاد لا نجد حركة مقاومة خلال هذا العهد دون أن يكون وراءها مرابط أو شريف.

وتكاتفت الزوايا والطرق الصوفية ما بين عامي 1830-1848 من أجل صد العدو المشترك : قادرية وطيبة ورحمانية ودرقاوية، إلا التيجانية التي أعلنت الحياد، أو بعض الطرق ذات الطابع المدني (27).

ظل الوضع على هذا النحو خلال عقد الخمسينيات أيضا، حيث برزت الرحمانية وظهرت السنوسية لأول مرة. وبقيت الزوايا ومن خلالها الطرق الصوفية النظام الوحيد القائم في المجتمع الجزائري بعد سقوط النظام العسكري والإداري (28).

تفطن الضباط الفرنسيون للدور الخطير الذي تلعبه الزوايا في تعكير أمن الاستعمار وبكونها حاجز قوي أمام تقدم جيشهم، وفي هذا الشأن كتب أرنست مرسييه عام 1869 : "إن الطرق الصوفية عدوة لفرنسا بالميلاد، وهي أكثر تعصبا، إذ تشكل أكبر عقبة في طريق التسلط الفرنسي على البلاد (الجزائر)" (29)؛ فسعت جاهدة إلى الضغط بكل الوسائل والعمل على خلق التفرقة بين شيوخها وطلبتها وأتباعها.

لقد شاركت الزوايا بفعالية في مقاومة نظام الحكم الاستعماري المستبد ولا يتسع هنا المجال إلى ذكر جميع الثورات التي قامت بها ، بل نكتفي بذكر بعضها :

1. ثورة الأمير عبد القادر القادري (1832-1847).
2. ثورة الحاج موسى الأغواطي الدرقاوي في التيطري عام 1935.
3. ثورة الشريف محمد عبد الله بومعزة بجبال الونشريس وأولاد نايل (1845 – 1847).
4. ثورة الشيخ أحمد بوزيان القادري في واحة الزعاطشة عام 1849.
5. ثورة الحاج عمر الرحماني ومولاي ابراهيم وفاطمة نسومر في جبال جرجرة (1850-1857).
6. ثورة الشيخ الصادق بلحاج في الخنقة وبسكرة (1858-1860).
7. ثورة الشريف محمد بن عبد الله السنوسي في ورقلة وتقرت (1852-1861).
8. ثورة أولاد سيدي الشيخ الطيبيين بالغرب الوهراني (1864-1881).
9. ثورة سي الأزرق بلحاج الطيبي في فليته عام 1864.

10. ثـورة الشـيخ الحـداد وابنيـه عزيـز ومحمـد ومقدميـه الرحمـانيين عـام 1871 في جبـال جرجـرة والبـابور والهضـاب العليـا القسنطينية.

11. ثورة الشيخ محمد يحـي الرحمـاني في واحـة العمـري عـام 1876.

12. ثـورة الشـيخ محمـد أمزيـان بـن عبـد الرحمـان في الأوراس عـام 1879.

13. ثـورة الشـيخ بوعمامـة الطـيبي بـالجنوب الـوهراني عـام (1881-1883) [30].

إن هـذه الثـورات والتمـردات والانتفاضـات لـدليل واضـح علـى الـدور السياسـي والعسـكري والمكانـة العاليـة الشـأن الـتي كانـت للزوايا ، والشيء الأكيد أنه لولا الخيانة ولـولا انصياع بعض رؤسـاء الزوايـا لكانـت قـد غـيرت مسـار تواجـد المسـتعمر الفرنسـي في الجزائر.

الخاتمة

لقد آثرنا في هذه الدراسة المتواضعة أن نسلط الضوء على موضوع الزوايا ودورها في المقاومة على جانبين أساسين ومترابطين ارتباطا وثيقا وهما الجانب التعليمي والديني والجانب السياسي والعسكري، باعتبار أنهما الركائز المتينة التي استندت عليهما الزوايا لمقاومتها للمستعمر ولسياسته التغريب من خلال طمس المقومات الأساسية للشخصية الجزائرية. وكما سبق الذكر فإن الزوايا قد أدت رسالتها في تعليم أبناء الوطن على الأخص في الفترة الأولى من الاحتلال.

بالإضافة إلى هذين الجانبين هناك الدور الاجتماعي الذي لعبته بحيث أنها كانت بمثابة "الجمعية الخيرية" بالمفهوم المعاصر، حيث تستقبل الفقراء والغرباء والمساكين وتطعمهم.

كما قامت بدور المحاكم، تتم فيها عقود الزواج والطلاق، وكان حرص الناس شديدا على عدم اللجوء إلى السلطات الحاكمة إلا في الظروف القاهرة لفض المشاكل والنزاعات.

لكن وبعد إخماد ثورة 1871 وبسط المستعمر نفوذه على أرض الوطن، لم تعد مستقرة على حال معينة نظرا لضرب الحصار عليها بهدف إضعاف مردودها الثقافي والديني، لاقتناع المستعمر الفرنسي بأن تركها دون مراقبة يشكل خطرا على سياسته الاستعمارية.

لقد استطاعت الزوايا رغم كل وسائل القمع أن تحافظ على الإسلام واللغة العربية بهذه البلاد وأن تحافظ على الشخصية الجزائرية بكل خصائصها وأن تصد المستعمر وتستصعب وجوده بالجزائر.

بيبليوغرافيا

- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ، ط. 1 ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988.

- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج. 3، ط. 1 ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990.

- أبو القاسم سعد الله، مدارس الثقافة في المغرب العربي 1830-1954 ، دراسة مركزة على الجزائر، مجلة البحوث والدراسات العربية، عدد 9، القاهرة، 1978.

- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية 1900- 1930 ، ط. 1 ، دار الآداب، بيروت، 1969.

- اليجري محمد حسن، الزاوية بين الجامع والمعمرة والمزار، جريدة المساء، العدد 421، 1988/05/26.

- الطاهر زرهوني، التعليم في الجزائر قبل وبعد الاستقلال، المؤسسة الوطنية للفنون المطبيعية، الجزائر، 1993.

- تركي رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر، ط. 5، منشورات المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر، 2001.

- يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرن التاسع عشر والعشرين، دار البعث، قسنطينة، 1980.

- مجموعة من المستشرقين، دائرة المعارف الإسلامية، ج. 10 ، ترجمة محمد ثابت أفندي.

- عمر بوخروفة، دور بعض الطرق الصوفية (الرحمانية- التيجانية) وموقف الحكومة الفرنسية منها (1870-1900)، مذكرة سنة أولى ماجستير، معهد التاريخ، جامعة الجزائر 1988-1989.

- نور الدين عوني، التعليم العربي في الجزائر ما بين 1830-1900 ، مذكرة السنة التمهيدية ماجستير، جامعة الجزائر، 1984-1985.

- Yvonne Turin, Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale, librairie François Maspero, Paris, 1971.

الهوامش

1- دائرة المعارف الإسلامية، ج 10، طبعة مصر، ترجمة محمد ثابت أفندي، ص. ص. 331 -333.

2 - د. تركي رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر، ط . 5، منشورات الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر، 2001، ص. 381.

3- دائرة المعارف الإسلامية... ص. ص. 331-333.

4- د. تركي رابح، نفس المرجع السابق، ص. 380.

5- اليجري، محمد حسن، الزاوية بين الجامع والمعمرة والمزار، جريدة المساء، العدد 421، 1988/05/26.

6- نفس المرجع السابق.

7- د. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص. 262-263.

8-، نفس المرجع السابق ص. 263.

9- نفسه، ص. 265.

10- نفسه.

11- نفس المرجع السابق، ص. 266.

12- نفسه، ص. 267.

13- نفسه، ص. 270.

14- نفس المرجع السابق، ص. 272.

15- د. أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج 3، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1990، ص. 16.

16- نفسه.

17- عمر بوخروفة، دور بعض الطرق الصوفية (الرحمانية- التيجانية) وموقف الحكومة الفرنسية منها (1870-1900)، مذكرة سنة أولى ماجستير، معهد التاريخ، جامعة الجزائر 1988- 1989، ص. 5.

18- د. أبو القاسم سعد الله، مدارس الثقافة في المغرب العربي 1830-1954، دراسة مركزة على الجزائر، مجلة

البحوث والدراسات العربية، عدد 9، القاهرة، 1978، ص. 5.

19- د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية 1900-1930، ط. 1، دار الآداب، بيروت، 1969، ص. 75.

20- يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرن التاسع عشر والعشرين، دار البعث، قسنطينة، 1980، ص. 204.

21- عمر بوخروفة، نفس المرجع السابق، ص. 7.

22- الطاهر زرهوني، التعليم في الجزائر قبل وبعد الاستقلال، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1993، ص 12.

23- تركي رابح، نفس المرجع السابق، ص. 350.

24- نور الدين عوني، التعليم العربي في الجزائر ما بين 1830-1900، مذكرة السنة التمهيدية ماجستير، جامعة الجزائر، 1984-1985، ص. 101.

25- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 3، ص . 173.

26- Yvonne Turin, Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale, librairie François Maspero, Paris, 1971, p. 109.

30 - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1830 - 1900، ج. 1، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1992، ص. 383.

31 - نفس المرجع السابق، ص. 383.

32 - نفس المرجع السابق، ص. 388.

33 - يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، ج 1، ط 2، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، ص. 348.